# الكتابة

## - أصل الكتابة:

حِرْفَةٌ أو صناعة ذات شأن كبير تعطي صاحبها (الكاتب) منزلة اجتماعية عظيمة. وكانت الحاجة لتلك الصناعة شديدة، وخصوصاً في الفترة التي كانت الأميَّة تسود المجتمع.

والكتابة من أعظم ما اخترع العقل البشري، فهي تحفظ التراث الإنساني وتواصل الأجيال. وفي صناعة الكتابة قال القلقشندي:

«وكفى بهذه الصناعة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه، ولا يزاحمه الكاتب في سيفه، بل كفى بهذه الصناعة مجداً وسموا أن السلطان وهو رئيس الناس؛ ومستخدم أرباب كل صناعة، ومُصَرفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلة له مع ترفعه عن التلبس بأية صناعة من الصنائع الحسنة، وأنَفته أن يقع اسم من أسمائها عليه».

*(صبح الأعشى، الجزء الأول، ص ٣٨)*

وقد ارتبط اسم الكتابة في الإسلام بكتاب الوحي الذين كانوا يقومون بكتابة وحي السماء (القرآن الكريم) إلى النبي ﷺ.

وقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فاشتدت حاجة المجتمع الإسلامي إلى الكتابة، فقد أصبح للدولة جيش وموظفون يقومون بأعمال الدولة، ويكتبون ذلك في دواوين اقتضاها تطور

الحياة ونظام الحكم، ولا يتم ذلك إلا بصناعة الكتابة وتوثيق الأمور مكتوبة حتى يرجع إليها عند الحاجة.

وكان مفهوم الكتابة يستجيب لتطور الزمن؛ ومتطلبات الحياة عَبْرَ التاريخ الإسلامي منذ أشرقت شمس الإسلام حتى اليوم. وقد ارتبط فَنُّ الكتابة بديوان الحكم، وأصبحت الكتابة وظيفة ذات شأن وخطر عظيمين.

قال الشاعر العربي في الكتابة:

ولضربة من كاتب ببنانه أمضى وأقطع من رقيق حسامِ

قوم إذا عزموا عداوة حاسدٍ سفكوا الدما بأسنةِ الأقلامِ

وفي اللغة: الكتابة من: كَتَبَ يكتب كتابة. ومن ذلك أيضاً: الكاتب الذي يقوم بالكتابة، وجمعه كُتّاب وكتبة. والمكتب: موضع الكتابة، وجمعه مكاتب. ويقال: فلان كاتَب صديقه، أي راسله.

**- التوقيعات:**

نوع من الكتابة الموجزة تأتي في نهاية الرسالة، كتعليق يشتمل على مضمون محتوى الرسالة، وقد يكون معروفاً بين الناس، أو حكمة ذائعة منتشرة بينهم.

وهذه الكلمات الموجزة تَنِم عن بلاغة اللغة؛ وحضارتها؛ فهي تحتوي على المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة.

وكان بعض الخلفاء يكتبون هذه التوقيعات بأنفسهم لأهميتها في نهاية رسائلهم، وكذلك فعل بعض الوزراء.

وقد اشتهر كثير من التوقيعات منسوبة إلى بعض الخلفاء في نهاية رسائلهم؛ فمما يروى متواتراً أن أهل الكوفة قد شكوا إلى الخليفة المنصور سوء معاملة عامله فيهم، فكتب الخليفة المنصور التوقيع التالي:

«كما تكونون يولى عليكم».

ومما ينسب متواتراً أيضاً إلى الخليفة عُمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله: «كَثُرَ شاكوك، وقَلَّ شاكروك. فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

ومن توقيعات هارون الرشيد المشهورة إلى أحد عماله في خراسان: «داوِ جُرْحَك لا يتسع».

وفي اللغة: وقَّعَ (في الكتابة): بَيَنَ في إيجاز رأيه فيه بالكتابة، (وفي العقد، أو الصك): كتب في أسفله اسمه إمضاء له أو إقراراً به. والتوقيع مفرد جمعه: توقيعات، وتواقيع أيضاً. وهي تعليقات الرؤساء على كتاب أو طلب بقول موجز يوضح رأيه فيه.

والموقِّع: هو كاتب التوقيع.

وقَّعَ، يوقِّع، توقيعاً.

**- الخاتم:**

عبارةٌ موجزة، محفورة في جسم صُلب يختم بها الخطاب بعد تمامه لإقراره والاعتراف بصحة ما فيه، أو تطبع كتابة هذا الخاتم على وجه

الخطاب حتى لا يفضه إلا المرسَل إليه. وإذا فتح فسدت الكتابة المختومة التي تدل على ذلك.

وكانت كتابة الخاتم موجزة منذ عهد النبوة، فكان للنبي ﷺ خاتمه الذي يختم به الرسائل التي كانت ترسل إلى ملوك العجم، حيث كان هؤلاء الملوك لا يقرون بما في الرسالة إلا إذا كانت محفورة بخاتم معين محدد. وكانت العبارة المحفورة على خاتم النبي ﷺ هي (محمد رسول الله). وقد اعتز الخلفاء الراشدون بخاتم النبي ﷺ حتى أنه يقال إنه قد سقط في بئر في عهد الخليفة عثمان بن عفان- رضي الله عنه- وبحث عنه كثيراً دون العثور عليه.

وكانت عبارة الخاتم موجزة شديدة الإيجاز، موحية قوية الإيحاء، ففي عهد الخلفاء الراشدين كانت العبارة تحمل موعظة. فكان نقش خاتم عمر بن الخطاب «كفى بالموت واعظاً يا عمر»، كما كان نقش الخليفة عثمان بن عفان «لينصرف أو لتندَمنَّ»، وكان نقش الخليفة علي بن أبي طالب «المُلك لله».

وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من استعمل الخاتم لضمان عدم فض الخطاب إلا من المرسل إليه، وكان لذلك قصة طريفة متواترة في مصادر متعددة، كما نجدها لدى ابن الأثير في كتابه (الكامل)، وهي أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، أرسل عمر بن الزبير إلى زياد بن أبيه عامل الخليفة على الكوفة بخطاب ليعطيه مائة ألف درهم. ولم يكن الخطاب مختوماً، فجعل عمر بن الزبير المائة مائتين، وعندما رفع زياد بن أبيه

الحساب إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان كشف ما قام به عمر بن الزبير. فما كان من الخليفة إلا أن وضعه في السجن، واستمر به حتى دفع أخوه عبد الله بن الزبير مائة الألف عن أخيه عمر. ومن بعدها استعمل الخليفة معاوية بن أبي سفيان ختم رسائل الدولة.

ثم أنشئ بعد ذلك (ديوان الخاتم) الذي يختم الرسائل المرسلة من الدولة. ويتأكد من سلامة ختم الرسائل القادمة إليها من الدول والممالك الأخرى.

وقد حرص خلفاء العصر العباسي على أن تحمل الكتابة المنقوشة بخاتم الخليفة الصلة الوثيقة بالخليفة. فكانت الكتابة المنقوشة بخاتم الخليفة الواثق هي: «الله ثقة الواثق»، وكانت عبارة خاتم الخليفة المتوكل هي: «توكلت على الله».

وفي اللغة: الخَتْمُ أو الخاتَمُ: من خَتَمَ خَتماً وختاماً. فالْخَتْمُ أثر نقش يدل على تمام الشيء، ومنه الخاتم الذي يُخْتَمُ به الخطاب، أو الرسالة.

والخِتام (بكسر الخاء) طين أو شمع يختم به على الشيء.

## - ديوان الإنشاء:

هو فن يعلم به جميع المعاني والتأليف بينها وتنسيقها، ثم التعبير عنها بعبارة أدبية راقية. استحدث ديوان الإنشاء في عهد العباسيين، وقد كان لهذا الديوان منزلة عظيمة في ذلك العهد (العباسي) من عهود الدولة الإسلامية.

وكان رئيس ديوان الإنشاء الذي كان يسمى أيضاً (الديوان العزيز) ـ كان رئيسه يسمى (كاتب السر). وكان هو كبير الكتاب في ذلك الديوان، حتى أنه لُقب أيضاً برئيس ديوان الإنشاء.

وقد حدث ذلك التطور في وظيفة الكتابة، حيث كانت الوظيفة ترتبط بالخلفاء في العهد الأموي. ثم ارتبطت بالوزراء في العهد العباسي في كثير من الأحيان. حيث كان بعض الخلفاء يتولى الرد بنفسه على بعض المكاتبات حين يرون ذلك ضرورة. وقد حدث هذا مع الخليفة أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، فقد دارت بينه وبين محمد بن عبد الله بن الحسن الذي ثار عليه سنة ١٤٥هـ، فكان الخليفة يتولى الرد بنفسه على كتبه؛ لأن هذه الكتب كانت تتحدث عن الأحساب والأنساب فرأى الخليفة أن يرد عليها بنفسه قائلاً: «إذا تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها».

*(ابن الأثير: الكامل في التاريخ)*

وفي اللغة: هي من الفعل: أنشأ، بمعنى: شرع. ويقال: أنشأ الكاتب مقالة، أي ألفها. ومن ذلك: أنشأ إنشاءً: أحدث وجدّد.

والإنشاء عند الأدباء: فن يعلم به جميع المعاني والتأليف بينها وتنسيقها، ثم التعبير عنها بعبارات أدبية بليغة.

### - صاحب القلم الدقيق:

هو الكاتب الذي كان يوقَّعُ على المظالم في العهد الفاطمي في مصرَ، وكان من أهل الكفاءة والثقة.

وكان صاحب القلم الدقيق يحظى بثقة الخليفة وتقديره؛ فكان يُجالس الخليفة ويسامره.

## - القلم والورق «أدوات الكتابة» :

القلم من أهم أدوات الكتابة، وقد أقسم به رب العزة - سبحانة وتعالى - في مفتتح سورة القلم. قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [١ - القلم]

وكان القلم في بداية عهد الكتابة يُصْنَعُ من القصب بأنواعه المتعددة، ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا في كثير من المجتمعات.

والآن تقدمت صناعة الأقلام، وتنوعت هذه الصناعة، فأصبح القلم يصنع من الرصاص، أو من العاج، أو من الأبنوس، أو غير ذلك من المعادن الأخرى، وقد يطلى بماء الذهب في بعض أجزائه أحيانا.

ويستخدم المِدَاد في الكتابة بالقلم. والمداد عبارة عن مسحوق من الفحم مع سائل لزج كالصمغ، وله ألوان متعددة، وهناك مادة للكتابة من الرصاص، ومادة أخرى من الحبر الجاف، أو غير ذلك مما تحرص عليه صناعة الكتابة المتطورة.

ومن أدوات الكتابة ما تكتب عليه المادة المكتوبة. وقد صنع العرب الورق منذ وقت مبكر، فكتبت عليه رسائل الحكام، وأمور الدولة. والآن تعددت أنواعه وأحجامه وألوانه.

ثم تنوعت الطباعة كما تنوعت الكتابة، وقد يسرت الطباعة الحديثة أمر الكتابة كما ساعدت على انتشار ما يكتب بسرعة؛ فالطباعة تمثل نقلة حضارية في تاريخ فن الكتابة ومتطلباتها.

**- الكاتب:**

وظيفة من يقوم بالكتابة لأهل الحكم وأولي الأمر، وقد ارتبط اسمه بصناعة الكتابة.

*(انظر: «الكتابة»)*

وقد أنشئت وظيفة الكاتب منذ إنشاء ديوان الرسائل في العهد الأموي، وكان الناس ينظرون إلى كاتب الرسائل نظرة تقدير واحترام لعلاقته الوطيدة بالحكم والحكام.

وكان خلفاء بني أمية يختارون كتّابهم من أقرب الناس إليهم، أو من أهل ثقتهم، كما كانوا يحرصون على أن يكون الكاتب شريف النسب، كريم الحسب، ومن عظماء قومه وعشيرته.

وكان عمل الكاتب تابعاً للخليفة، أو الوزير في أول الأمر. ثم استقلت الكتابة؛ وأصبح الكاتب نظيراً للوزير، بل وأخذ لقبه في بعض الأحيان.

وفي اللغة: كاتبٌ اسم فاعل من الفعل: كَتَبَ. ويقال: كُتَّابٌ وكَتَبَةٌ، والمفردة كاتبة.

وفي الأدب: الكاتب: من يتولى صناعة النثر. وكذلك من يتولى عملاً كتابيا أو إداريا.

- **كاتب الدرج:**

هو كاتب من الطبقة الثانية من الكتاب بمصرَ في عهد المماليك.

وكان هؤلاء الكتاب يكتبون الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل من عدة أوصال. كما كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وكاتب الدست.

وكان عدد كتاب الدرج يزيد بزيادة عدد كتاب الدست.

- **كاتب الدست:**

هو كاتب يجلس في صدارة المجلس بين يَدَي السلطان، وهو من الطبقة الأولى من طبقات كُتاب ديوان الإنشاء في مصر في عهد المماليك.

وكان في أعمال (كُتَّاب الدست) قراءةُ القَصَصِ على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان.

ومن كتاب الدست في ذلك العهد فخر الدين لقمان الذي تولى رئاسة الديوان في عهد الملك الظاهر بيبرس.

- **كاتب السرّ:**

أصبح هذا هو اسم كاتب ديوان الإنشاء في عهد المنصور بن قلاوون، حيث غَيَّر هذا الحاكم من حكام مصر المماليك اسم (صاحب الديوان) أو كاتب ديوان الإنشاء إلى لقب (كاتب السر).

وكان هذا الديوان يقوم بما تقوم به وزارة الخارجية الآن.

فكانت تَفِدُ إليه المكاتبات الرسمية للدولة من جميع أنحاء الولايات والممالك التي كان بينها وبين مصر علاقات.

### - الكاتب الوزير:

اتخذ أحمد بن طولون كاتباً له يسمى (كاتب السر) وكان بمثابة سكرتير خاص له، وكان الكاتب يقوم بأعمال الوزير، فكان بمثابة الوزير. واستمر ذلك حتى العهد الفاطمي، فكانت الكتابة في ذلك العهد تعادل الوزارة؛ أو تليها في المرتبة، فكانت الكتابة تسند إلى أهل الكفاءة والثقة.

### - الكتابة الديوانية:

هي نوع من الكتابة تتطلبه حياة الدولة، وتسيير أمورها من تدوين الدواوين؛ أو شئون الوزارات ومعاهداتها؛ أو بيت المال، وتدبيرات الاقتصاد من إنتاج واستهلاك.

والكتابة الديوانية تحتاج إلى دقة في اختيار الألفاظ التي تحدد المعنى المراد تحديداً دقيقاً. ولذلك كانت هذه الكتابة تسمى أيضاً «كتابة الأموال».

وقد أُنْشِئتْ عدة دواوين للكتابة الديوانية اختلفت من حيث العدد باختلاف تطور مظاهر الحياة في الدولة الإسلامية، كما سنرى في كثير من مداخل هذا الفصل.

*(انظر: «ديوان الإنشاء»)*

## نماذج من الكتاب:

نبغ كثير من الكتاب واشتهرت أسماؤهم، وذاع صيتهم بين الناس، حيث كان هؤلاء الكتّاب يعتمد عليهم الحكام في تسيير أمور الدولة؛ وشئون الحكم؛ ومؤانسة الحكام.

ومن هذه النماذج لأولئك الكتاب المشهورين:

- عبد الحميد الكاتب. - فخر الدين لقمان.
- القضاعي الكاتب. - يحيى بن خالد البرمكي.

### - عبد الحميد الكاتب:

هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب، من أصل فارسي، نشأ بالأنبار، ثم انتقل إلى الشام.

وهو من أشهر كُتاب العهد الأموي، وقد عاش بالكوفة، وعمل بها معلماً، وعاش في أوج الدولة الأموية، وغاية عزِها.

وأول من اتصل به من خلفاء بني أمية هشام بن عبد الملك، ومما ساعده على النبوغ في الكتابة التقاؤه سالماً، مولى هشام بن عبد الملك، ورئيس كتّابه وأمهرهم، وأكثرهم اطلاعاً على ثقافة اليونان وأدبهم.

ثم اتصل عبد الحميد الكاتب بمروان بن محمد حين كان والياً على أرمينية فنشأت بينهما صداقة ومودة قويتان، مما جعل مروان بن محمد يصحبه معه إلى دمشق حين آلت إليه الخلافة. وظلَّ عبد الحميد الكاتب منقطعاً لخدمة مروان بن محمد، ويقصرُ وفاءه عليه حتى آخر حياتهما.

وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب مُلما بالثقافة اليونانية، ثم الفارسية، مع نبوغه في العربية، مما جعله ينبغ في فن الكتابة.

وكان أول من أطال الرسائل حتى بلغ بعضها زهاء ثلاثين صفحة، كما عني بترتيب أفكارها، وحسن تقسيمها وتنسيقها. وقد وهبَ حُسن الذوق، ودقة الاختيار للألفاظ الجميلة التي تصنع الأسلوب الرشيق.

ويَرى أن للكتَّاب منزلة عظيمة، وعليهم واجباً كبيراً؛ والتزاماً أدبيا عظيماً. ومن قوله فيهم: «بكُمْ تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، ويعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم؛ فموقعكم من الملوك مع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وأيديهم التي بها يبطشون. فتنافسوا يا معشر الكتاب في صفوف الآداب، وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عزَّ وجَلَّ والفرائض (المواريث)، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيها ودنيها؛ فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب . . وإياكم والكبر والسخف والعظمة . . وتحابوا في الله عَزَّ وجَلَّ في صناعتكم . .».

وحين فَرَّ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية هرباً من العباسيين، أصرَّ عبدالحميد بن يحيى الكاتب على ملازمته حتى لقيا مصرعهما بقرية بوصير المصرية في عام ١٣٢هـ.

### - القضاعي الكاتب :

هو كاتب ذائع الصيت، واسع الشهرة في مصر زمن الفاطميين. وقد نبغ في الكتابة نبوغا كبيراً، وحظي بثقة الحكام؛ فكان يجالسهم ويسامرهم.

وكان القضاعي يكتب العلامة أو الإشارة التي تذيل بها الأوراق الرسمية عندما أصبح من كتاب البلاط.

وقد توفي القضاعي في عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م.

**- يحيى بن خالد البرمكي :**

هو من البرامكة الذين أصبحوا من ذوي المكانة العالية، والمنزلة السامية في العهد العباسي برغم أنه من غير العرب.

وكان يحيى بن خالد البرمكي من الكتاب المشهورين المعدودين الذين حظوا بثقة وتقدير الخليفة هارون الرشيد، فكان يتولى في عهده رئاسة «ديوان الإنشاء».